مقالات؛ تحت ظلال السيوف...

{صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا}

بقلم؛ سيف الدين الأنصاري

بعد الحديث عن المنافقين وعن طبيعة الموقف الذي يجب أن تتخذه الجماعة المسلمة اتجاههم ننتقل إلى الكلام عن الفريق المقابل وهم المؤمنون، لأنه بالحديث عنهم تكتمل الصورة التي نستطيع من خلالها أن نكون تصورا صحيحا عن الأطراف الثلاثة المشكلة لمعادلة الصراع، ولاشك أن ذلك مما يساعدنا على امتلاك الرؤية الواضحة التي تعد بمثابة العامل الأول في تحقيق النصر.

وبما أن الحديث عن المؤمنين حديث طويل، ونحن لا نريد أن نسترسل في تناول المواضيع والنظر إليها من خارج دائرة الصراع، فإننا سوف نركز فقط على ما من شأنه أن يبرز المعالم المميزة للمؤمنين عن غيرهم، في محاولة لتعميق الوعي بالفرق بينهم وبين من يمكن أن يختلط بهم، متبعين في ذلك منهجية القرآن الذي تناول الموضوع من خلال إثارة الفروق الظاهرة في ساحة العمل.

أثناء عرض القرآن لأحداث "الأحزاب" وبعد الكلام عن المنافقين من خلال إبراز مواقفهم الظاهرة وتحليل ما صاحبها من الأحوال التي تدل على الكذب في الارتباط بالإيمان، انتقل إلى الكلام عن الفريق المقابل - وهم المؤمنون - لتتضح الصورة من خلال الفرق في المواقف فقال: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} [الأحزاب:23].

قال الطبري: (أي فرغ من عمله ورجع إلى ربه كمن استشهد يوم بدر ويوم أحد، ومنهم من ينتظر ما وعد الله من نصره والشهادة على ما مضى عليه أصحابه) [التفسير: 21/145].

*　　*　　*

أولاً: أصناف المؤمنين:

يظهر من خلال الأية أن المؤمنين على صنفين اثنين:

<u>الصنف الأول: المختارون الشهداء:</u>

الشهداء قوم من المؤمنين، يصطفيهم الله من بين المجاهدين ليتخذهم شهداء، بكل المعاني العميقة التي يحملها مفهوم الشهادة، قال تعالى: {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ} [الأحزاب:23]، أي استشهد من أجل الحق الذي يحمله. وقد جاءت هذه الآية مباشرة بعد ثنائه عليهم بأنهم {صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا}، وهي إشارة واضحة إلى أن الشهادة تحمل في طياتها تعبيرا عن نوع الارتباط بالإيمان، وأنها فيصل بين الصادق منه والكاذب، فالشهداء لم يرتبطوا بالإيمان من خلال ضجيج الكلمة التي لا حظ لها من العمل، ولا من خلال شكليات المظهر التي تكون على حساب الجوهر، ولكنهم ارتبطوا به من خلال العمل المنسجم مع الحقيقة التي تحملها دلالة اللفظ.

ولذلك لم تكن الشهادة لتوقف دور المجاهد في صراع الإيمان مع الكفر، بل ولم تأت لتحد منه، خاصة إذا أحسنا نحن استثمارها، وإنما تأتي لتنقل المجاهد إلى صيغة أخرى من العمل، وإلى نوع جديد من الأداء، ربما يكون تأثيره أكثر فعالية من أدائه القديم. أو بعبارة أخرى: إن الشهيد مجاهد قد انتهى دوره الذي كان يؤديه من خلال الجسد، وبدأ دوره من خلال الروح التي سوف تؤثر في حركة الحياة بقدر عظمة المعاني التي فاضت من أجلها.

باستشهاد الأستاذ سيد قطب انتشرت كلمة الحق وعمت الأرجاء، فكان استشهاده دعوة، وباستشهاد الإمام عبد الله عزام ازدادت شعلة الجهاد توقدا، فكان استشهاده فتحا، وباستشهاد القائد خطاب استخلصت العبر وارتفع معدل التحقيقات العسكرية، فكان استشهاده نصرا. واليوم يستشهد القائد صلاح شحادة، ونحن على يقين أنه باستشهاده سوف يفتح للجهاد في فلسطين آفاقا جديدة، تنقله نقلات بعيدة وتدفع به - إن شاء الله - إلى مواقع أكثر تقدما مما هو عليه. ولو لم يكن من آثار هذا الشهيد إلاّ إعادة النظر في الموقف من العملاء لكان كافيا للدلالة على تأثير الشهداء في المسار الحركي للجماعة المسلمة.

وهكذا هم الشهداء دائما.. لا يموتون وإنما ينتقلون إلى العالم الآخر ليواصلوا من هناك أداء دورهم في الصراع ولكن بطريقة مغايرة، قد لا يفهمها كثير من الناس، خاصة أصحاب الفكر الضيق والحس المتبلد، ولكنها حتما موجودة ومؤثرة.

ليست المشكلة أن يكثر الاستشهاد في أفراد الحركة الإسلامية، لأن طريق الجهاد كفيل بإخراج الرجال المؤهلين - إرادة وقدرة - لمواصلة السير مهما علا سقف المتطلبات، ولكن المشكلة الحقيقية كامنة في أولئك الذين يقضون حياتهم يتهيبون الموت، ويتتبعون آثار السلامة.. المشكلة في أولئك الذين يسيل لعابهم عند ذكر موائد المفاوضات الاستسلامية، أو أصوات الناخبين في اللعبة الديموقراطية.. هذه هي المشكلة لأنها تجعل الحركة تسير في الاتجاه المعاكس لخط العبادة وتحرم الأمة أن تستفيد من آثار الشهادة.

<u>الصنف الثاني: الأحياء الأمناء:</u>

والصنف الثاني من المؤمنين هم الأحياء الأمناء.. أمناء لأنهم ما بدلوا العهد الذي عاهدوا الله عليه، وهو التزام حقيقة الإيمان والاستجابة لمتطلباته، ومنها الجهاد في سبيل الله. ومن علامة أمانتهم أنهم قد استصحبوا حالة الانتظار للشهادة التي نالها أصحابهم، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ} [الأحزاب:23].

قال القرطبي: (ومنهم من ينتظر الشهادة) [التفسير:14/158].

على أن بعض العلماء قد جعل حالة الانتظار متعلقة بالوعد في معناه العام الذي يتضمن النصر أو الشهادة، وهو ما يشير إليه القرآن ب{إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ} [التوبة:52].

قال الطبري: (ومنهم من ينتظر ما وعد الله من نصره والشهادة على ما مضى عليه أصحابه) [التفسير: 21/145].

ولكن مهما يكن فإن كليهما - النصر أو الشهادة - وعد، والوعد يحمل في طياته التكليف بالأسباب الكفيلة بتحققه، وهذا ما يعني أن الانتظار الذي وصُف به هؤلاء المؤمنون ليس سكونا مميتا يتجسد في حالة من الترقب

السلبي للنتائج الغيبية دون الأخذ بمقدماتها المناسبة، فتلك حالة من الكذب يغلفها أصحابها بغلاف من فلسفة العجز المخالفة لسنن الله الشرعية والقدرية، وإنما الانتظار تعبير عن حالة من الاستعداد الدائم الذي يترجَم في عملية الأخذ الجدي بكل الأسباب الكفيلة بتحقق الوعد، وإلاّ كيف تصْدق حالةُ انتظار الشهادة على طلاّب السلامة ودعاة القعود الذين لا يعرفون عن الجهاد إلاّ أنه طريق للعنف والعنف المضاد!!

إن الطريق الوحيد لتحقيق شعار "النصر أو الشهادة" هو طريق الجهاد، وليس هناك طريق غيره، لا شرعا ولا قدرا، وحالة انتظار هذا الوعد لا تصدق إلاّ على الذين ساروا على هذا الطريق، والنيات الطيبة التي يصاحبها السير في الاتجاه المعاكس للمسار الموصل إلى الهدف لا تعدو أن تكون ضربا من الأماني الكاذبة من الأفضل لأصحابها أن يستيقظوا من سباتهم.

إن في الإنسان نوعا من إيثار الكسل والميل إلى السلامة، ولذلك يحس أن فريضة الجهاد ثقيلة عليه، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة:216]، إلاّ أن الوحي لايزال بالمؤمنين في حالة من الارتقاء الفكري والنفسي حتى يصير الجهاد محببا إليهم، فلا تطلب الحياة عندهم من أجل الارتباط بالأيام وتعداد ساعات الليل والنهار، ولا لتحصيل اللذيذ من الطعام واللين من الفراش، ولكن إن تكن هناك رغبة في الحياة فلن تكون إلاّ من أجل الجهاد.

وفي الحديث: (أقتل ثم أحيا ثم أقتل) [مسلم]، وقد عبر عن ذلك الصحابي الجليل سعد بن معاذ - وفيه نزلت آية الموضوع - بقوله: (اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها).

* * *

ثانياً: الصفات العامة للمؤمنين:

مدار صفات المؤمنين التي تميزهم عن المنافقين على أمرين اثنين:

1) الصدق؛ {صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا}:

بعد حديث القرآن عن المؤمنين ومدحه لهم بصنفيهم، المختارون الشهداء والأحياء الأمناء، قال: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [الأحزاب:24]، في إشارة واضحة إلى أن الصدق هو الصفة التي تميّز بها المؤمنون عن المنافقين.

قال ابن القيم: (الإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب) [المدارج].

ويظهر من خلال التأمل أن التجسيد الذي يحققه المؤمن لمفردات الإيمان راجع أساسا إلى تمكّن صفة الصدق من نفسه، إذ من الملاحظ أن هذه الصفة توجِد في النفس حالة من الميل الشديد إلى تحقيق الانسجام بين القناعة الفكرية والسلوك العملي، وهي الحالة التي ينشأ عنها نوع من قوة الدافع نحو العمل (الإرادة)، قال صلى الله عليه وسلم: (والصدق يهدي إلى البر) [البخاري].

وفي المقابل يمكن تفسير التخلف عن الاستجابة عند المنافقين على أنه ضعف أو انعدام للإرادة الناتج أساسا عن غياب صفة الصدق أو عدم تمكنها من النفس، فالكذب في الأقوال والأعمال من الصفات البارزة في الشخصية المنافقة، قال تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [المنافقون: 1]

2) الثبات؛ {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}:

الثبات هو الاستقرار على الحق وعدم التغير عنه إلى غيره، قال تعالى: {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} [الأحزاب: 23].

قال النسفي: (وما بدلوا العهد تبديلا ولا غيروه، لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة) [3/302].

وهي الصورة المقابلة للمنافقين الذين لا يثبتون على الحق، ولا يستقرون على المبدأ، وإنما يدورون مع الأهواء تبعا لما تمليه أعراف المصالح الذاتية.

فالثبات على الحق يعني على المستوى العملي الحرصَ على الحركة من خلال المبدأ، والإصرار على الاستمساك بالحق رغم تعدد العقبات، بحيث تُجسَد الحركة في صورة من المواقف الصلبة التي تحمل طابع التحدي،

وتستعلي على أن تكون معالجة المشاكل تلهث دائما وراء سياسة أنصاف الحلول والرضى بالأمر الواقع.

وكما أن التحليق في أجواء المبدأ وتجريد القضية عن معطيات الواقع الذاتي والموضوعي يعد نوعا من "المثالية" المرفوضة، لأنها لا تفرق بين دائرة الواجب ودائرة الممكن، فإن الواقعية المطلوبة لا تعني عند المؤمنين الانسياق وراء سلسلة من التنازلات تؤدي في النهاية إلى تفريغ الحركة من محتواها الأصلي، وتجعل مباءها شيئا من ذكريات التاريخ، فتحولها إلى حركة أخرى تكون بمثابة النسخة المعدلة جينياً، بحيث لم تعد ترتبط بالقضية إلاّ من خلال الشعار الفارغ من المضمون.

لكن تجدر الإشارة إلى أن الثبات لا يعني الجمود على لون واحد من ألوان الأساليب والخطط التي تدخل في حكم الوسائل، ما دامت لا تخرج عن دائرة الشرعية، فالإسلام يريد أن يكون تحديد الوسائل من خلال الحاجة، تبعاً لم ا يتطلبه منطق التجاوب مع المستجدات، بحيث يكون التحرك نحو الهدف آخذا بعين الاعتبار التفعيل الجيد لأدوات الواقع، خلافا لأعراف العقلية التقليدية التي يصعب عليها تقبل الحقيقة إلاّ من خلال الصورة المعتادة، فترفض الإبداع، وتنزع إلى الحفاظ على الشكل ولو أدى إلى تجميد المضمون.

إن خط الإيمان هو خط الجهاد والاستشهاد، ودائرة المؤمنين دائرة لا يتسع قطرها إلاّ لصنفين من الناس {فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}، والجماعة المسلمة في حاجة إلى دور المؤمنين الشهداء كما هي في حاجة إلى دور المؤمنين الأمناء، ولن تصل إلى أهدافها إلاّ بتفيعل الدورين والاستفادة من الصنفين.

منبر التوحيد والجهاد

* * *

sw.dehwat.www//:ptth
sw.esedqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth
moc.adataq-uba.www//:ptth